بالعظمة كان خلوًا من الفكر الفلسفى ، وكيف يتأنى أن تعطل وظيفة الفكر فى نفس إنسان كبير القلب ، متيقظ الخاطر مكتظ الجوانح بالإحساس كالشاعر العظيم؟ إنما المفهوم المعهود أن شعراء الأمم الفحول كانوا من طلائع النهضة الفكرية ورسل الحقائق والمذاهب فى كل عصر نبغوا فيه فمكانتهم فى تاريخ تقدم المعارف والآراء لا يعفيه ولا يغض منه مكانهم فى تواريخ الآداب والفنون ، ودعوتهم المقصودة أو اللدنية إلى تصحيح الأذواق وتقويم الأخلاق لا تضيع سدى فى جانب أناشيدهم الشجية ومعانيهم الخيالية . هكذا كان شكسبير شاعرًا ناطق الفكر حتى فى أغانيه الغزلية وهكذا كان جيته وشللر وهاينى شعراء الألمان الفلاسفة فى استعدادهم وسيرة حياتهم . وفيما يستقرى من مجموعة أعمالهم وهكذا كان بيرون ووردزويرث وسوينبرن من الشعراء المجاهدين فى أغانيهم . المغنين فى جهادهم : وهكذا كان من قبلهم جميعا دانتى اللجيرى إمام النهضة الإيطالية بل هكذا كان شاعر عظيم فى أية لغة وفى أية قبيل» .

وهذا كلها مجادلة يبرع فيها العقاد كما سبق أن أوضحنا يوما عند مناقشتنا معه التى أشرنا إليها من قبل ، ولكنها لا تخلو من مغالطات . فالشعر لا يمكن أن يتسع للفلسفة أو التفلسف وبخاصة الغنائى منه ، وفرق بين أن يتفلسف الشعر وبين أن يصدر عن فلسفة خاصة فى الحياة الطبيعية ووجهة نظر محددة إليها ، كما أن هناك فرقًا كبيرًا بين التأمل الفلسفى الذى يصطبغ بوجدان الشاعر وتثيره لواعجه ومخاوفه وأشواق روحه ، وبين التفلسف أو الفلسفة . ولا نذهب فى إيضاح كل هذه الفوارق التى تجاهلها العقاد إلى النظر فى تعليقه فى المقال نفسه على قول المتنبى :